

إدوارد سعيد يرافع
عن تاريخ الفامش

المهمشة وكذا المساعي المبذولة لإنزال الفكر الفلسفي من برجها العاجي إلى الحياة اليومية الشعبية.

على أساس ما تقدم فإنه ينبغي القول بأن تسمية "دراسات التابع" بهذا الاسم بالذات لا تعود فقط إلى مجموعة الدارسين والنقاد الآسيويين منهم راناجت دوها، وغياتري سبيفاك، بل هناك دور مفصلي للمفكر أنطونيو غرامشي الذي الصانع الطليعي لمصطلح "التابع" في مدونته الشهيرة "ملاحظات دفتر السجن"، كما يلاحظ ذلك كثير من مؤرخي الأفكار من الدارس الناقد الحبيب لوي الذي أوضح أن "فكرة التابع" يعود ذكرها إلى "غرامشي في مقاله الموسوم بملاحظات حول التاريخ الإيطالي" الذي ظهر في ما بعد في مدونته الفكرية والنضالية "دفاتر السجن" المذكورة آنفاً أما المقصود بالتابع بشكل عام، حسب الدارس الحبيب لوي، فهو كل يرفض موقع المهنس والمرتبعة السفلى في أي مجتمع وفي أي ظرف زمني.

حقل دراسات التابع يهتم أساساً
بنقد وخلخلة التاريخ الكلي
الذي يروي سرديات النخب أو
الطبقات والشرائح المسيطرة

في المقدمة اللامعة التي كتبها لكتاب "مختارات دراسات التابع"، الذي أشرف على تحريره الأب الروحي لهذا التخصص المعرفي وهو راناجت دوها وشارك فيه عدد من المتخصصين والمختصين الهنود في كتابة تاريخ المهمشين في المجتمع الهندي، أوضح الناقد المفكر إدوارد سعيد أن "التاريخ الهندي قد كتب حتى الآن من منظور المستعمر (بكمس الميم) ووجهة النظر النخبوية، بينما الجزء الأوسع من التاريخ الهندي قد صنعته الطبقات التابعة، ولذلك هناك حاجة ملحة إلى تاريخ جديد يرمز هؤلاء الدارسون أن يكتبوه".

هنا تتضح الصورة أكثر وهي أن حقل دراسات التابع يهتم أساساً بنقد وخلخلة التاريخ الكلي الذي يروي سرديات النخب أو الطبقات والشرائح المسيطرة من جهة ويكتابة نقيض وهو سرديات/تواريخ الشرائح التي تقصى المدونة التاريخية الرسمية من جهة أخرى.

وفي تقدير إدوارد سعيد فإن كلمة "التابع" ذات دلالات سياسية وفكرية، ويدين أن المعنى المضاد لها هو المسيطر أو النخبة أي "المجموعة الموجودة في السلطة"، وتعني "في الحالة الهندية الطبقات المتحالفة إما مع البريطانيين الذين حكموا الهند على مدى 300 سنة، أو عدداً من التابعين المختارين، والطلاب وإما البشر المنتمين إلى الصف الثاني والذين تعاونوا مع البريطانيين".

ومن الضروري هنا الإشارة إلى أن إدوارد سعيد يبرر أن المرجعيات النظرية لجماعة دراسات التابع تتميز "بالهجنة" بمعنى أنها ليست هندية فقط وإنما هي مزيج من روافد "أوروبية/غربية، وآسيوية، وكاريبية، وأميركية لاتينية وأفريقية، ويستنتج بالتالي أن كل هؤلاء الدارسين المنخرطين في حقل دراسات التابع هم تلاميذ ماركس النقديون مثلما يلاحظ تأثرهم "بالبنوية وما بعد البنوية وبمفكرين مثل دريدا، وفوكو، وبارت، والتوسير، وإدوار طومسون وإريك هوبسون وغيرهم".

وإن هؤلاء الدارسين ليسوا بناقلين خائعين، وإنما هم يشتركون مع المفكرين المذكورين في النماذج النظرية الكلية لا أكثر.

أزراح عمر
كاتب جزائري

لا يزال الفاعلون في المشهد الثقافي والفكري الراهن ببلداننا غير متفحين كما ينبغي على ما تحقق من إنجازات مهمة جداً في القارة الآسيوية. وجزء ذلك فإن الأجيال الجديدة في بلداننا لا تفقه شيئاً ذا قيمة عن الشعر الآسيوي القديم والحديث والمعاصر، مع العلم أن التجارب الشعرية الآسيوية تتميز بفرادتها ضمن المشهد العام للشعر العالمي قديماً وحديثاً وهي تعد كنزاً ثقافياً وروحياً بامتياز، إذ لا يمكن أن يتجاهل أحد في العالم ملحمته الأوبانشيد، ومهابهاراتا أو فتوحات الشاعر الهندي طاغور وتميز الشاعر الباكستاني فايز أحمد فايز وغيرهما كثير طبعاً، ومن الملاحظ أن التركيز المفرط والنمطي عندنا ينحصر في الغالب في المتابعة المحتشمة للإنتاج الفكري والأدبي الغربي.

في العقود القليلة الماضية ولد تخصص مهم يدعى بـ"دراسات التابع" على أيدي عدد من الدارسين والمؤرخين الاجتماعيين والنقاد المفكرين الآسيويين الذين عملوا في الجامعات البريطانية والأميركية، ولكن هذا التخصص الذي مضى على تشكيله ما لا يقل عن أربعة عقود من الزمان قد ظل مجهولاً في المشهد النقدي الثقافي العربي المعاصر، علماً وأننا في حاجة ماسة إلى استيعابه وتمثله وإنشاء شعب تهتم به في جامعاتنا وفي مراكز البحث التاريخي والثقافي، لأن ذلك سيمكننا من تحقيق إضافات نوعية في هذا المجال المعرفي نظراً إلى تشابه مشكلاتنا ما بعد الكولونيالية مع ما عاينته كثير من بلدان آسيا في العصر الحديث.

ولا شك أن ما قام به الناقد والمفكر الفلسطيني الشهير إدوارد سعيد من تقديم واحتضان لهذا التخصص لدليل واضح أن "دراسات التابع" هو حقل معرفي وتجربة منهجية ورؤية نقدية ذات أهمية بالغة في مشهد النقد الكولونيالي وما بعد الكولونيالي المعاصر، وذلك رغم بعض النقد الموجه لهذا التخصص ولأنوائه المنهجية، وخاصة جزاء استدعاء بعض رواده لفاهيم وأجهزة نظرية جاهزة ومستقاة من التجارب الاجتماعية والسياسية والفكرية الأوروبية/الغربية وإسقاطها على تجارب المجتمعات الآسيوية المستعمرة سابقاً مثل الهند.

في البداية لا بد من التذكير أن هوية هذا التخصص النقدي لها خصوصية تميزها رغم أنها تدخل في إطار الهوية الكبرى للدراسات النقدية ما بعد الاستعمارية، ونظراً إلى ذلك فإن مصطلح "التابع" لا ينبغي فهمه فقط ضمن سياق النقد الماركسي الطبقي الذي ينظر فقط إلى شرائح العمال والفلاحين كمهمشين، بل إنه من الضروري أيضاً توسيع هذا المنظور للنظر من خلاله إلى هذا المصطلح ليصبح بمثابة المشكال الذي يبين لنا أيضاً مختلف الفئات المهمشة سواء كنت فئة المهاجرين أو اللاجئين أو النساء أو الملونين، أو المجموعات الإثنية والعرقية الصغيرة المهممين عليها وهلم جرا.

ويبدو واضحاً أن مؤرخي الأفكار متفقون أن تخصص "دراسات التابع" لا يمكن فهمه أيضاً دون الأخذ بعين الاعتبار المحاولات المبذولة من طرف دول الهامش/ الأطراف المستعمرة سابقاً والتابعة لاحقاً لفك ارتباطاتها ولصعوبات هذه المهمة أيضاً كما يعتقدون أنه من المستحيل فصله، من حيث التوجه، عن أنماط الحقول

النقدية والمعرفية التي شاهدهت ميلادها المرحلة التاريخية التي تميزت بنقد الظاهرة الاستعمارية والمركزية الأوروبية الغربية في القرن العشرين وبدايات القرن الواحد والعشرين، ودون إدراك إنجازات الدراسات الإثنية والنسوية وكذا تنوع المنظورات النقدية مثل منظورات مدرسة فرانكفورت، ونظرية النظام العالمي، والدراسات الثقافية فضلاً عن المرافعات التي تدافع عن كتابة تاريخ الذوات

انصراف القراء عن قراءة القصص
يهز عرش القصة القصيرة

ضعف الإقبال تسبب في تراجع الناشرين ورفض الأعمال الجديدة



القصة جنس أدبي مختلف مهدد بالتلاشي (لوحة للفنانة غلناز فتحي)

مؤخراً إلى العربية أن أحدثت أي من مجموعاتهم القصصية رواجاً يماثل ما حققته الروايات، وحتى الأديب العالمي غابريال غارسيا ماركيز نفسه فلا يمكن مقارنة مبيعات مجموعاته القصصية بمبيعات أي من رواياته. ويرى بيومسي أن إيقاع الزمن، ينتصر للرواية على حساب القصة القصيرة لأن الرواية تتسم بالإشباع والقدرة على إثارة الدهشة والمتعة بشكل يفوق ما تحققة القصة من حيث تعدد الشخصيات، تنوع الحوارات، عمق التناول، وحجم المعلومات المقدم إلى القارئ.

أما القصة فهي لحظة خاطفة، مكثفة، تعتمد في الغالب على شخصية واحدة، والحوار فيها ليس أساسياً، ما يجعلها أصعب إلى الهضم لدى جمهور القارئ خاصة الحداثيين منهم. وهناك سبب آخر يرتبط بإيقاع العصر، إذ يؤدي انشغال المجتمعات بالعمل لفترات أطول مما هو معتاد، إلى الحاجة إلى فترة راحة كل مدة زمنية تتجاوز الغفوات القصيرة، وتمثل استراحة أشبه باستراحة المحارب، وهنا فإن الرواية هي الأنسب للقراءة خلال استراحة المحارب، وليست القصة القصيرة.

ويتابع بيومسي قائلاً "إن شحنة الخيال في الرواية أضعاف الموجود في القصة بحكم الشكل والتنوع والقدرة على اقتحام كافة القضايا".

كذلك فإن هناك نضوباً واضحاً لدى جمهور الإبداع في ما يخص المبدعين الأكثر إدهاشاً في مجال القصة القصيرة، والتي صنعت مجدها الأول في العالم العربي، اعتماداً على مبدعين عظام مثل يوسف إدريس وزكريا تامر وغيرهما.

ويقول الناقد مصطفى بيومسي إن هناك بالفعل بعض الأسماء العظيمة التي مازالت باقية في سماء القصة القصيرة مثل سعيد الكفراوي، وحسن عبدالموجود، وغيرهما لكن هؤلاء وجددهم لا يتشكلون عنصر إبهار وتأثيراً كبيراً لدى جمهور القراء، خاصة الشباب منهم. ويخلص إلى أنه من الصعب جداً توقع مستقبل القصة القصيرة في العالم العربي، غير أنه يمكن أن يعاود هذا الفن انتعاشه مرة أخرى إذا نجح كتاب جديد في تقديم قصص مكثفة أشبه بومضات، تجمع بين العمق والبساطة والتكثيف، وهي كتابة صعبة جداً لكنها مهيرة متى تحققت.

يقول الكاتب الأميركي جيمس بالدوين، أشهر من كتبوا في القصة القصيرة، "إن لكل مجال قلب، وقلب الأدب هو المجموعات القصصية". ولكن ربما بات للجمهور في البلدان العربية رأي آخر لاسيما مع التراجع الواضح لمبيعات المجموعة القصصية إلى درجة جعلت الناشرين يرفضون الأعمال القصصية غير الروائية لعدم تحقيقها للرابح المادي الكافي.

موجات من الظواهر الأدبية تتجتاح جمهور القراء كل حين على مستوى مختلف بلدان العالم دون أسباب واضحة، ما يشير إلى أن هناك جماعات مصالحة قد تستغل وسائل التواصل الاجتماعي في الترويج للون معين من الأدب أو الكتابات.

ويقول شريف الليثي مدير دار "توي" للنشر لـ"العرب"، إن مجموعات القصص القصيرة تواجه منذ عدة شهور موجة عالية من الانحسار، وهو ما لا يوجد له تفسير واضح.

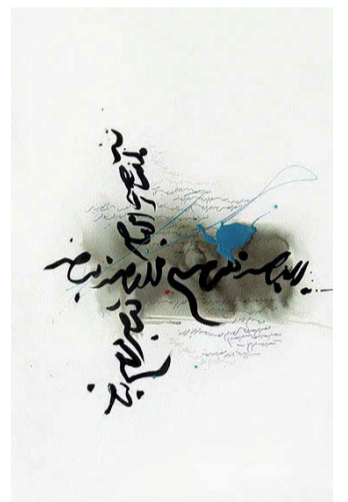
ويرى أن الأمر قد يتعلق بشكل رئيسي بمجموعات مؤثرة من الأشخاص على شبكات التواصل الاجتماعي وعلى موقع "غودريدز" والذين يعملون على توجيه سوق القراء في العالم العربي لصالح ألوان معينة، ضد ألوان أخرى. لذا لم يكن غريباً أن معظم المجموعات القصصية التي صدرت في السنوات الثلاث الأخيرة لم تتجاوز مبيعات أفضلها في مصر 200 نسخة.

وذكر الليثي أنه قد قدم مبادرة قبل شهور لنشر مجموعات قصصية كنوع من مقاومة الظاهرة، وبالفعل أصدر خلال معرض الكتاب الأخير في يناير الماضي مجموعة قصصية لإحدى الكاتبات الواعدات، لكن النتائج لم تكن مرضية.

ولم تسلم كتابات كبار الكتاب من ظاهرة انصراف الجمهور عن القصة القصيرة، إذ شهدت مجموعات قصصية معروفة لنجيب محفوظ صدرت عن دار الشروق تراجعاً ملحوظاً.

كذلك فإن مجموعات قصصية لكتاب آخرين مثل يوسف إدريس ومحمد المخزنجي، وسعيد الكفراوي وإبراهيم عيسى، لم تجد رواجاً مماثلاً لما كان معتاداً لأعمالهم.

ويعتقد البعض أن خفوت نجم المجموعات القصصية على مستوى مصر وبعض البلدان العربية يرجع في الأساس لموجة كساد كبيرة تتجتاح سوق الكتب، وتؤثر على بعض صنوف الكتب، نتيجة ارتفاع تكلفة النشر، بعد زيادة أسعار الورق والأحبار. يؤكد أحمد عبدالمجيد، الروائي ومستشار النشر في دار الرواق إن



مصطفى عبيد
كاتب مصري

القاهرة - بات فن القصة القصيرة في مصر مستبعداً من النشر لدى معظم الدور الخاصة نتيجة انصراف القراء. وواجه كثير من القصاص الشباب مشكلة كبيرة في إصدار مجموعاتهم القصصية، بسبب رفض كافة الدور قبول مجموعات قصصية خلال الشهور الماضية، ما أثار لديهم شعوراً بوجود ظاهرة رفض متعمد لنشر المجموعات القصصية.

وبرر ناشرون مصريون الظاهرة باستشعارهم انصراف جمهور القراء عن شراء واقتناء المجموعات القصصية في الأونة الأخيرة، حتى إن كانت لكبار الكتاب.

خفوت القصة

يحكى القاص الشاب عبدالوهاب مقلد لـ"العرب" أنه انتهى من كتابة مجموعة من القصص القصيرة وعرضها على كثير من النقاد والأدباء وحازت إعجابهم ورضاهم، غير أن ثلاث دور نشر شهيرة رفضت قبولها تحت لافتة عدم نشر المجموعات القصصية. وذكر مقلد أن بعض دور النشر الصغيرة تقبل إصدار المجموعات القصصية، لكن مع تحمّل المؤلف التكلفة لوجود قناعة سائدة بأن المجموعات القصصية لا توزع جيداً.

ويكتشف قصاص آخر، يعتذر عن نشر اسمه، أنه دار على مدى عدة شهور على كثير من دور النشر المهتمة بالأدب، وفوجيء باعتذار مُتكرر مفاده أن القصص القصيرة لم تعد مفضلة لدى جمهور الأدب.

ويقول لـ"العرب" إن المنفذ الوحيد المتاح في الوقت الحالي لنشر أي مجموعات قصصية هو تقديمها لهيئة قصور الثقافة وهي جهة حكومية تتطلب وسطاء وعلاقات، وحتى مع ذلك، فإنها تتعطل لعدة سنوات نتيجة طول طابور المتقدمين، والروتين الحكومي. ويعتقد بعض الناشرين أن هناك